خواتيم سورة البقرة ، وغُفِرَ لمن لم يُشْرِك بالله من أمّته شيئاً المُقحِمات(١) .

وروى البخـــاريّ في صحيحه(٢) عن جابر بن عـبد الله رضي الله عنهـما قال: سمـعت النبيّ ﷺ يقول : لمّا كذّبتنى قريشٌ قمت فى الحِـجْر فجلّى الله لى بيت المقدس ، فطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عن آياته وأنا أنظر إليه .

والآية الكريمة تنزّه الله تعـالى علواً كبـيراً عـمّا ألحقـه به الظّالمون مِنْ نسـبة الصّاحبة إليه جلّ وعلا والولد والشّريك والوليّ وتبرّؤه عزّ وجلّ الّذى أسرى بعبده محمّد ﷺ ملائكته جلّ وعلا الأطهار ، من المسجد الحرام فى مكّة المكرّمة ، إلى المسجدِ الأقصى فى القدس الشّريف ، فقد كان تلك اللّيلة أبعد المساجد ، كما أنّه أبعد المساجد الثـلاثة الّتى تُشَدُّ إليها الرّحال . إنّ الله سبحـانه وتعالى هو السّميع لكلّ قـول ، العليم بكلّ فـعلٍ وقولٍ ونيّـة ، المجـازى على كلّ ذلك . إن خيـراً فخير، أو شراً فشرّ .

وقد كان الإسراء والمعراج بالرّوح والجسد ، لأنّه لو كان رؤيا مناميّة ماكُذِّب المصطفى ﷺ ولا ارتدّ ضعاف الإيمان . والله أعلم .

وكان الإسراء والمعراج قـبل هجرة المصطفى ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنّورة . وذهب فريقٌ من العلماء إلى أنّ الإسراء والمعراج كانا قبل الهجرة بسنة ، لقد رحّبت السّماء بالمصطفى ﷺ واتّسَعَتْ له ، بعد أن ضاقت الأرض به ﷺ إثر وفاة عمّه أبى طالب سند المصطفى ﷺ خارج المنزل ، ووفاة السّيّدة خديجة رضي الله تعـالى عنها بعـده بثلاثـة أيّام ، وقد كـانت سنده ﷺ داخل المنزل(٣) ومن مظاهر ضيق الأرض به ﷺ الرّدّ غـير الكريم من قبيلة ثقيـف عليه ﷺ وقد ذهب

---

(١) المقحمات ، بضمّ الميم وإسكـان القاف وكسر الحاء ، ومعناه الذّنوب العظام الكبائر الّـتى تهلك أصحابها وتوزدهم النّار وتقحمـهم إيّاها . والتّقحّم : الوقوع فى المهالك . ومـعنى الكلام : من مات من هذه الأمّة غير مشرك غُفر له المقحمات . الإمام النّووى.

(٢) فتح البارى ٨/ ٣٩١ حديث رقم ٤٧١٠

(٣) انظر هنا ـ مثلاً ـ السّيرة النّبويّة لابن هشام ١/ ٤١٦ ونور اليقين فى سـيرة سيّد المرسلين ٧٢ بشـأن وفاة خديجة وأبى طالب والسّيرة ١/ ٤١٩ ونور اليقين ٧٥ بشأن الخروج الى ثقيف.

عليه الصّلاة والسّلام إليهم فى الطّائف ، وهى بلدةٌ على مسافة خمسةٍ وستّين ميلاً جنوب شرقيّ مكّة المكرّمة ، يدعوهم إلى دين الإسلام .

وإليك دعاءَ المصطفى ﷺ بعد أن لقي من ثقيف ما لَقِي مِنْ ردٍّ غير كريم : « اللّهمّ إليك أشكو ضعف قـوّتى ، وقلّةَ حيلتى ، وهوانى على النّاس ، يا أرحم الرّاحـمين . أنت ربّ المستـضـعفين ، وأنت ربّى ، إلى من تَـكِلُنى ؟ إلى بعيـدٍ يتجهّمني[1] أم إلى عدوٍّ ملّكتـه أمرى ؟ إن لم يكن بك عليّ غـضبٌ فلا أبالى ، ولكنّ عافـيتك هي أوسع لى . أعـوذ بنور وجهك الّذى أشرقَـتْ له الظّلمات ، وصَلَحَ عليـه أمـر الدّنيـا والآخـرة ، مِنْ أن تُنْـزِلَ بى غـضـبك ، أو يحلَّ عليَّ سَخَطك. لك العُتْبَى حتّى ترضى . ولا حول ولا قوّة إلاّ بك »[2] .

---

(١) يتجهّمنى : يستقبلنى بوجه كريه

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام أ/ ٤٢٠

(٢)

« إن عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد بعد

المرّتين المذكورتين فى التّوراة الموحى

بها إلى موسى عليه السّلام

عـــاد الانتقام منهم »

الآيات (٢ ـ ٨)

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

وآتينا موسى الكتاب : التّوراة(١) .

وجعلناه هدىً لبنى إسرائيل : وجعلنا الكتاب الّذى هو التّوراة(٢) .

ألا تتّخذوا من دونى وكـيلا : لئلا تتّخذوا من دونى وكـيلاً ، أي وليّاً ولا نصيراً ولا معبوداً دونى(٣) .

بعـد حديث الآية الكريمة السّـابقة عن الإسـراء بالمصطفى ﷺ من المسـجد الحـرام إلى المسجـد الأقصى تتـحدّث هذه الآية الكـريمة التّاليـة عن موسى عليـه السّلام. وما أكثر الجَمْعَ فى القـرآن الكريم بين الرّسولين الكريمين بسبب الكثير من أوجه الشّـبه بينهـما . ومن هذه الأوجـه أنّ كلاًّ من الرّسـولين الكريمين من أولى العـزم من الرّسل الخـمسـة وهم على التـوالى : نوحٌ وإبراهيم ومـوسى وعيـسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومِنْ أوجه الشّبه كذلك أنّ كلاً من الرّسولين الكريمين قد أوحى الله تعالى إليه كتاباً سماوياً هما التّوراة فى حقّ موسي عليه السّلام ، والقـرآن الكريم فى حقّ محمّد ﷺ ، هذا إلى المشـقّة الّتى كابدها

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٤ والجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٤ والبحر المحيط ٦/ ٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤.

كلٌّ من الرّسولين الكريمين مع قومه . وإلى شيءٍ من هذه المكابدة أومأ موسى عليه الصّلاة والسّلام فى حديث المعراج حينما برّر طلبه من المصطفى ﷺ بأن يرجع إلى ربّه جل وعلا يسأله التّخفيف من الصّلوات الخمسين المفروضة ، وذلك بمثل قوله عليه الصّلاة والسّلام(١) : « ارْجِعْ إلى ربّك فاسأله التّخفيف فإن أمّتك لا يطيقون ذلك، فإنىّ قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم » .

يقول تعالى ذكره : سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب(٢) وهذا الكتاب وهو التّوراة ، قد جعله الله تعالى هادياً لبنى إسرائيل من الضّلالة ، ومرشداً لهم إلى الطّريقة الّتى هي أقوم ، لئلاّ يتّخذ بنو إسرائيل من دون الله تعالى وكيلاً يفوّضون إليه أمورهم ، ويعتمدون عليه فى شئونهم . إنّ لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر . وإنّ التّوراة تهدى إلى هذه المعانى السّامية . والمعروف أنّ السّورة الكريمة بعد أن تتحدّث فى صدرها عن التّوراة وعن بنى إسرائيل تتحوّل إلى الحديث عن القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى ، وتعمّق معنى الهداية فى حقّ القرآن الكريم أيضاً ، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا(٣) : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هي أقومُ ويبشّرُ المؤمنين الّذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً . وأنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ .

وممّا قد يبيّن معنى الآية الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة السّجدة(٤) :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مريةٍ من لقائه وجعلناه هدىً لبنى إسرائيل ﴾ لقد التقى الرّسولان الكريمان ليلة الإسراء ، وبإذن الله تعالى يلتقيان يوم القيامة .

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٢١٤.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤.
(٣) سورة الإسراء ٩و١٠.
(٤) الآية ٢٣.

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

ذرّيّة من حملنا مع نوح : تقديره : يا ذرّيّة من حملنا مع نوح . فيه تهييجٌ وتنبيهٌ على المنّة ، أي ياسلالة من نجّينا فحملنا مع نوح فى السّفينة تشبّهوا بأبيكم(١) وعنى بالذّرّيّة جميع من احتجّ عليه جلّ ثناؤه بهذا القرآن من أجناس الأمم عربهم وعجمهم ، من بنى إسرائيل وغيرهم . وذلك أنّ كلّ من على الأرض من بنى آدم فهم من ذرّيّة من حمله الله مع نوحٍ فى السّفينة(٢) ولأجل هذا كان نوحٌ عليه السّلام بمثابة الأب الثّانى للبشريّة ، بعد آدم عليه السّلام . ونوحٌ عليه السّلام أوّل الرّسل ، فقد جاء فى صحيح البخارى (٣) فى حديث الشّفاعة : « فيأتون نوحاً فيقولون : يانوح ، إنّك أنت أوّل الرّسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربّك » .

تنادى الآية الكريمة ذرية من حمل الله تعالى مع نوحٍ عليه السّلام فى السّفينة زمن الطّوفان فنجَوْا من الموت وغرق الآخرون الّذين كانوا خارج السّفينة ، وتّهيج تلك الذّرّيّة على استباق الخيرات ، فإنّ الإحسان جزاء الإحسان . إنّ الله تعالى أنجا نوحاً عليه السّلام ومن معه فى السّفينة . وإنّ كلّ الناس بعد الطّوفان من ذرّيّة أولئك المسلمين لله ربّ العالمين الّذين كانوا على ظهر السّفينة . إنّ المطلوب من الذّرّيّة أن يكونوا مثل آبائهم فقديماً قيل :

بأبه اقتدى عَدِيٌّ في الكَرَمْ ## ومَنْ يشابِهْ أبَهُ فما ظَلَمْ(٤)

ولّما كان نوحٌ عليه السّلام كثير الشّكر لله تعالى ، فلفظة ﴿ شكور ﴾ على صيغة المبالغة « فعول » فإنّ على ذرّيّة هذا العبد الشّكور لمولاه جلّ وعلا ، أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤ وانظر البحر المحيط ٦/ ٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥.

(٣) فتح البارى ٨/ ٣٩٥ حديث رقم ٤٧١٢.

(٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٤٥ الشّاهد رقم ٥.

يكونوا مثل أبيهم نـوحٍ عليه السّلام الكثير الشكر لله تعـالى . ويتجلى الشّكر فى أوضح صوره وأصحّها حينما يفرد العبد مولاه جلّ وعلا بالعبادة .

ومِنْ مظاهر الرّباط بين الآيات الكريمات الثّلاث فى أوّل السّـورة الكريمة أنّها تتحـدّث عن ثلاثة من أولى العزم الخـمسة من الرّسل ، هذا إلـى استعـمال لفظة العبـد فى حقّ كلٍّ من محـمّد ﷺ ونوح عليـه السّلام . فى معـرض المنّ يجىء القول عن المصطفي ﷺ فى الآية الكريمة الأولـى : ﴿ سبحان الّذى أسرى بـعبده ليـلاً ﴾ وفى معـرض الثّناء يجىء القـول عن نوح عليـه السّـلام فى الآية الكريمة الثالثة : ﴿ إنّه كـان عبداً شكوراً ﴾ وحينما يكون الأب عبـداً لله تعالى فمن باب الأولْى أن تتّصف الذّرّية بهذه الصّفة العظيمة ، وفى مـقدّمة هؤلاء محمّدٌ وموسى عليهما صلوات الله تعالى وسلامه .

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

وقضينا إلى بنى إسرائيل : هذا قضاءٌ بالإعلام والفصل فى الحكم ، أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جَزْماً(١) عن ابن عبّاس قال : هو قضاءٌ قُضِي عليهم(٢) .

في الكتاب : التّوراة(٣) .

ولتعلنّ علواً كبيراً : تبغون بغياً عظيماً(٤) .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد قضى إلى بنى إسرائيل وأوحي إليهم بأنّه جلّ وعلا قد قدّر عليهم وكتب فى التّوراة الّتى أوحاها جلّ وعلا إلى موسى عليه السّلام بأنهم سوف يفسدون فى أرض الشّام بالمعاصى(٥) مرّتين اثنتين، وليعلون علواً كبيراً ، وليبغون بغياً عظيماً .

وقد انتهت المرّتان ، وانتقم الله تعالى منهم كلّ مرّة .

والمعروف أنّ القوم يعودون إلى الإفساد بطبعهم ويعود الله جلّ وعلا إلى الانتقام منهم بعدد مرّات الإفساد فى الأرض والبغى على عباد الله تعالى . وقد خاطبتهم السّورة الكريمة بالقول (٦): ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ والمعنى : وإن عدتم يابنى إسرائيل إلى الإفساد عدنا إلى الانتقام منكم .

وقد ذهب الإمام ابن جرير الطّبريّ فى تفسيره إلى أنّ قمّة الإفساد في المرة

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قضى» ٤٠٦ وانظر هنا الجلالين ، وتأمّلات فى سورة الإسراء ٣٦ للمؤلف.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥ / ١٦.

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) سورة الإسراء ٨.

الأولى تجلّت فى قتل بنى إسرائيل زكريا عليه السّلام ، في رأي ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما[١] أو قتلهم نبيهم شعياء ، فى رأي ابن اسحاق[٢] كما ذهب ابن جرير إلى أنّ الّذى سلّط على بنى إسرائيل فى المرّة الأولى هو بختنصّر[٣] المجوسي[٤] من ملوك فارس[٥] وسباهم إلى بابل[٦] .

وقد ذهب ابن جرير فى تفسيره[٧] إلى أنّ إفساد بنى إسرائيل فى المرّة الآخرة لا اختلاف بين أهل العلم أنّ قمّته تجلّت فى قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السّلام : « وقد اختلفوا فى الّذى سلّطه الله عليهم منتقماً به منهم عند ذلك »[٨] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧و٢١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧و٢١.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢١و١٧ وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢١.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢١.

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

بعثنا عليكم عباداً لنا : سلّطنا عليكم جنداً من خلقنا(١) .

أولى بأسٍ شديد : ذوى بطش فى الحروب شديد(٢) .

فجاسوا خلال الدّيار : فتردّدوا بين الدّور والمساكن وذهبوا وجاءوا . يقال فيه : جاس القوم بين الدّيار وحاسوا ، بمعنىً واحد . وجُسْت أنا أجوس جوساً وجوساناً (٣) ويقارب ذلك جاسوا وداسوا .

وقيل : الجوس : طلب ذلك الشيء باستقصاء(٤) .

فإذا جاء وعد الإفساد الأوّل ، وقضى الله تعالى بالانتقام من بنى إسرائيل المفسدين فى الأرض ، سلّط الله سبحانه وتعالى على القوم ، عباداً له جلّ وعلا وجنودا، أولى بأسٍ شديدٍ فى الحرب ، وبطشٍ أكيدٍ فى القتال ، فجاسوا خلال الدّيار ، وتردّدوا بين المدن ، وذهبوا وجاءوا بين البيوت، فساموا بنى إسرائيل الخسف ، وجرّعوهم كئوس الذّلّ ، وألبسوهم صنوف الهوان . وكان ذلك الوعد بالانتقام من بنى إسرائيل المفسدين فى الأرض وعداً مفعولاً ، قضاه أحكم الحاكمين وقدّره .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢٢.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢٢.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جاس» ١٠٣.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

ثمّ رددنا لكم الكرّة : الدّولة والغلبة[١] والكرّ: العطف على الشّيء بالذّات أو بالفعل[٢] .

وجعلناكم أكثر نفيرا : النّفير عِدّة رجال يمكنهم النّفر إلى الحرب[٣] يقال نفَر إلى الحرب يَنْفُرُ ويَنْفِر نَفْراً ، ومنه يومُ النَّفْر[٤] يقول : وصيّرناكم أكثر عددٍ نافرٍ منهم[٥] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد ردّ لبنى إسرائيل الكرّة على أولئك الّذين سلّطهم الله تعالى عليهم ، وجعل لبنى إسرائيل الدّولة والغلبة ، وأمدّ بنى إسرائيل بالكثير من الأموال والأولاد ، وجعلهم الأكثر عدداً بشأن الرِّجال النّافرين للحرب ، القادرين على حمل السّلاح ، المطيقين للقتال .

---

(١) الجلالين.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «كر» ٤٢٨.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نفر» ٥٠١.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نفر» ٥٠١.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢٤.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

إن أحسنتم : بالطّاعة[١] .

وإن أسأتم فلها : أي فعليها[٢] .

فإذا جاء وعد الآخرة : فإذا جاء وعد المرّة الآخرة من مرّتي إفسادكم يابنى إسرائيل فى الأرض[٣] .

ليسوءوا وجوهكم : بعثناهم ليسوءوا وجوهكم[٤] والسّوء : كل ما يَغُمّ الإنسانَ من الأمور الدّنيويّة والأخرويّة ، ومن الأحوال النّفسيّة والبدنيّة والخارجة ، من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميم[٥] ويُنْسَب ذلك إلى الوجه مِنْ حيث إنّه يبدو فى الوجه أثر السّرور والغمّ[٦] .

وليدخلوا المسجد : أي بيت المقدس[٧] فيخربوه [٨].

وليتبّروا ما علوا تتبيرا : وليدمّروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرا.

يقال منه : دمّرت البلد إذا خرّبته وأهلكت أهله . وتبّر تبراً وتبارا ، وتبّرته

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢٤.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٢٤.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سوأ» ٢٥٢.
(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سوأ» ٢٥٣.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٤ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٦.
(٨) الجلالين.

أتبّره تتبيراً . ومنه قول الله تعالى ذكره (١): ﴿ ولا تزد الظّالمين إلاّ تبارا ﴾ يعنى هلاكا(٢) والتَّبْر : الإهلاك(٣) .

نستطيع أن نفهم أنّ ربّ العزّة جعل الغَلَبة لبنى إسرائيل على الّذين تردّدوا بالإفساد بين ديارهم بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى بارئهم جلّ وعلا بالإصلاح بعد الإفساد وبعمل الطّاعات بعد المعصيات . وهاهي ذى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعمّق هذا المعنى بالقول فى صدرها خطاباً لبنى إسرائيل : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ والمعنى : إن أحسنتم بالطّاعة أحسنتم لأنفسكم ، لأنّ ثواب الطّاعة عائدٌ إليهم فى الدّنيا والآخرة ، وإن أسأتم فعليها ، لأنّ عقاب المعصية عائدٌ إليكم فى الدّنيا والآخرة .

ولمّا كان بنو إسرائيل قد عادوا إلى المعصية وإلى الإفساد فى الأرض مرّةً أخرى كما بيّنت التّوراة واستحقّوا العذاب الأليم على سوء أعمالهم فقد بيّنت الآية الكريمة ذلك وقرّرت عذاب القوم الأليم .

إنّ عذاب المرّة الآخرة إذا جاء عقب إفسادكم للمرّة الثّانية ، بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديد ، وأخذ أكيد ، بأكثر من السّابقين بأساً وأخذاً فى المرّة الأولى ، ليجوسوا خلال الدّيار ، وليتردّدوا بين البيوت تخريباً وتقتيلاً وإيذاءً إلى الحدّ الّذى ينعكس معه الغمّ ، الّذى ملأ نفوسكم ، على وجوهكم الّى يلفّها السّوء وتعلوها الكآبة . وينتهى الأمر بالقوم إلى دخول بيت المقدس كما دخله عبادنا السّابقون أوّل مرّة ، وليسوموكم الخسف ، ويوقعوا عليكم الهلاك الأكيد ، والبلاء الدّائم ، طوال مدّة الاستعلاء عليكم ، الّتى تنتهى بإرادة الله تعالى ، كما انتهت سابقتها ، بعد أن تعودوا إلى بارئكم جلّ وعلا وتتوبوا إليه توبةً نصوحاً .

وإنّ مِنْ أهمّ ما لفت انتباهنا فى الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن بنى

---

(١) سورة نوح ٢٨.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٤.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «تبر» ٢٧.

إسرائيل ، أتباع موسى عليه السّلام ، أنّها فى حديثها عن مكان العبادة فى اليهوديّة ، تعدل عن ذكر مكان العبادة فى اليهودية إلى ذكر مكان العبادة فى الإسلام ، أعنى المسجد ، وذلك فى القول : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة ﴾ والمراد بالمسجد بيت المقدس كما عرفنا . ثمّ إنّ الآية الكريمة تشير باسم ضمير المفرد الغائب فى القول : ﴿ كما دخلوه أوّل مرّة ﴾ إلى المسجد مكان العبادة فى الإسلام . وبذلك يكون ثمّة ذكران للمسجد ، أحدهما بصريح اللّفظ : ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ وآخرهما باستعمال الضّمير العائد إليه : ﴿ كما دخلوه أوّل مرّة ﴾ .

وإذا كان ذكر المسجد فى هذا الموضع من سورة الإسراء جاء إثر العدول عن ذكر مكان العبادة فى اليهوديّة ، فإنّ فى القرآن الكريم موضعين آخرين تمّ فيهما العدول إلى استعمال لفظ مسجد الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام . أمّا الموضع الأوّل فقد تم فيه العدول عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى النّصرانيّة إلى استعمال لفظ مسجد وهو الموضع من سورة الكهف الّذى يتمّ الحديث فيه عن أهل الكهف من أتباع عيسى عليه السّلام . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقٌ وأنّ السّاعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربّهم أعلم بهم . قال الّذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً ﴾ ، إنّ المؤمنين من أتباع عيسى عليه السّلام الّذين كانت السّلطة بأيديهم آنذاك قالوا فى حقّ أهل الكهف الّذين قبض الله أرواحهم إلى جواره : لنتّخذنّ عليهم مسجداً ، أي مكان عبادة وفق ملّتنا .

وأمّا الموضع الآخر الّذى تمّ فيه العدول إلى استعمال لفظ مسجد ففى قول الحقّ جلّ وعلا من سورة البقرة[2] : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمُه وسعى فى خرابها . أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين . لهم

---

(١) سورة الكهف ٢١.

(٢) الآية ١١٤.

فى الدّنيا خزيٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ والآية الكريمة مرتبطةٌ تماماً بسابقتها . قال عزّ من قائل(١) : ﴿ وقالتِ اليهود ليست النّصارى على شيء وقالتِ النّصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . إنّه فى ضوء السّياق وما ذكر العلماء فى سبب النّزول والنّصّ على أنّ النّصارى وهم أهل الكتاب ساعدوا بختنصّر المجوسّي على بنى إسرائيل وهم أهل الكتاب وعلى دخول بيت المقدس والسّعي فى خرابها ، ويلحق بأهل الكتاب كفّار قريش الّذين منعوا المصطفى ﷺ والمؤمنين عام الحديبية سنة ستٍّ من الهجرة من أداء العمرة وزيارة البيت الحرام والصّلاة فيه ، إنّه فى ضوء كل ذلك يفيد لفظ المساجد فى القول: ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله ﴾ ويؤدّى معنى لفظ المسجد فى آية سورة الكهف ، ويدلّ على كلّ مسجدٍ ومكانٍ للعبادة فى الإسلام .

ونبادر إلى القول بأنّ القرآن الكريم لا يمتنع عن ذكر أماكن العبادة فى كلٍّ من اليهوديّة والنّصرانيّة . جاء فى سورة الحجّ(٢) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ أُذِن لّلذين يقاتلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ الله على نصرهم لقدير . الّذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله . ولولا دفعُ الله النّاسَ بعضهم ببعضٍ لهُدِّمَتْ صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً . ولينصُرَنّ الله من ينصره . إنّ الله لقوىٌّ عزيز ﴾ والمعنى ، والله تعالى أعلم ، إنّ الله سبحانه وتعالى أذِنَ للمؤمنين فى هذه السّورة الكريمة المدنيّة ، وسمح فى أوّل إذنٍ منه جلّ وعلا للمؤمنين بالدّفاع عن النّفس ، وأعلمهم بأنّهم إنّما يقاتلهم الكافرون ظلماً وعدواناً ، وبأن الله تعالى على نصرهم لقدير . إنهم هم الّذين أخرجهم كفّار مكّة من أماكنهم في مكّة المكرّمة بغير حقٍّ ، لأنّهم يقولون ربّنا الله تعالى ، ويوحّدونه جلّ وعلا ، ويفردونه بالعبادة . ولولا دفع الله تعالى النّاس بعضهم

---

(١) سورة البقرة ١١٣.

(٢) الآيتان ٣٩و٤٠.

ببعض ، ودفع شرور بعضهم بتسليط بعضهم الآخر عليهم ، لما بقى لخاصّة النّصارى ورهبانهم صوامع ، ولا لعامّتهم كنائس ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد يُذْكر فيها اسم الله تعالى كثيرا .

فما الحكمة من العدول فى القرآن الكريم ، حينما يراد التّعبير عن مطلق مكان العبادة ، عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى اليهوديّة والنّصرانيّة إلى استعمال لفظ المسجد ، الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام وحده ؟

الحكمة من هذا العدول التّنبيه إلى أنّ دين الإسلام ، الّذى بعث الله تعالى به محمدّ بن عبد الله ﷺ ، خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، هو الدّين النّاسخ لسائر الدّيانات السّماويّة وفي مقدّمتها اليهوديّة والنّصرانيّة ، ومن باب الأولى غير السّماويّة ، وأنّ المصطفى ﷺ هو الوارث الشّرعيّ لمقدّسات الدّيانات السّماويّة السّابقة ، وفي مقدّمة هذه المقدّسات القدس الشّريف ، فعلى المسلمين أن يعوا ذلك جيّداً ، وأن يعدّوا العدّة لاستعادة القدس الشّريف وسائر المقدّسات الإسلاميّة . والله من وراء القصد وهو يهدى السّبيل[1] .

---

(١) درسنا الآية الكريمة من سورة الإسراء فى كتاباً : تأمّلات فى سورة الإسراء وبيّنّا الحكمة من العدول إلى استعمال لفظة مسجد ص ٤٤ـ٤٨ وانظر تأملات فى سورة البقرة للمؤلف ١/ ٦٥٣ـ٦٨٦.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

حينما نقارن بين صدر الآية الكريمة التّعقيبيّة هنا على إفساد بنى إسرائيل فى المرّة الثّانية : ﴿ عسي ربّكم أن يرحمكم ﴾ وبين صدر الآية الكريمة السّابعة التّعقيبيّة على إفساد بنى إسرائيل فى المرّة الأولى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ عودة بنى إسرائيل إلى بارئهم جلّ وعلا بعد الإفساد فى المرّة الأولى كانت سريعةً ، وقد جازاهم ربّ العزّة والجلال إحساناً بإحسان ، فجعل الغَلَبة لبنى إسرائيل وأمدّهم بالكثير من الأموال والأولاد والرّجال القادرين على حمل السّلاح والقتال . أمّا عودة بنى إسرائيل إلى بارئهم جلّ وعلا بعد الإفساد فى المرّة الثّانية فيبدو، والله تعالى أعلم ، وكما يُفْهَم من مجيء عسى فى القول فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها وهو الّذى يفيد الرّجاء ﴿ عسى ربّكم أن يرحمكم ﴾ يبدو أنّ العودة الى الله تعالى ، إن تحقّقت ، فإنه ليست على وجه السّرعة المطلوبة . إنّ « عسى » من الله عزّ وجلّ واجب(١) في حال عودة بنى إسرائيل إلى الله تعالى والتّوبة الصّادقة النّصوح ، وكلّ ذلك إن تحقّق فى أحسن الفروض فعلى التّراخى ، وليس الدّليل على ذلك مبنيّاً فقط على مجيء عسى الّذى يفيد الرّجاء أن يرحم الله تعالى بنى إسرائيل ، وهو جلّ وعلا الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ ، إنّما الدّليل مبنيٌّ كذلك على الجزئيّتين الكريمتين التّاليتين ، الخاصّة ببنى إسرائيل : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ والعامّة : ﴿ وجعلنا جهنّم للكافرين حصيرا ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ وإن عدتم يابنى إسرائيل إلى الإفساد

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٥.

عدنا إلى الانتقام . وليس تاريخ القوم إلاّ سلسلةً من العودة إلى الإفساد فى الأرض فانتقام الله تعالى منهم ، مصداقاً لقول الحقّ جلّ وعلا بشأنهم فى سورة الأعراف[١] : ﴿ وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ إنّ ما نصّت عليه آية سورة الأعراف هو القاعدة . وإنّ مانصّت عليه آية سورة آل عمران[٢] التّالية هو الإستثناء . قال عزّ من قائل : ﴿ ضُربت عليهم الذّلّةُ أينما ثُقِفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُربت عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ إنّ الاستثناء أن تكون الدّولة لبنى إسرائيل بسبب الإمداد من الله تعالى لهم فى طغيانهم يعمهون ، ويتعلّق بهذا السّبب من الله تعالى السّبب من البشر الّذين يأخذون بأيدى بنى إسرائيل ويساعدونهم فى طغيانهم وبغيهم على غرار ما يحدث اليوم . وقد عبّرت الآية الكريمة عن هذين السّببين بالقول : ﴿ إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس ﴾ .

لقد خاطب الله تعالى بنى إسرائيل بقوله جلّ وعلا : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ وقد عادوا إلى الإفساد ، وستعود من الله تعالى العقوبة لهم .

وإنّ غداً لناظره قريبُ .

وهذا القول : ﴿ وجعلنا جهنّم للكافرين حصيرا ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى جعل جهنّم لكلّ الكافرين ، من بنى إسرائيل وسواهم محبساً وسجناً[٣] فراشاً ومهاداً[٤] وسمِيّ الحصير بذلك لحصر بعض طاقاته على بعض[٥]

---

(١) الآية ١٦٧.

(٢) الآية ١٦٧.

(٣) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٦ وتفسير الطّبرى ١٥/ ٣٥.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٥.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حصر» ١٢٠.

(٣)

« القرآن الكريم يهـــــدى للطّريقة الّتى هـــــي أقوم ، وكلّ إنســـان مســـئولٌ عن نفسه ، وسيثاب المحسنَ ويعاقَب المسىء ، فاستبقوا الخيرات »

الآيات (٩ ـ ٢١)

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

إنّ هذا القرآن يهدى لّلتى هي أقوم : يهدى للطّريقة الّتى هي أعدل وأصوب(١) وللسّبيل الّتى هي أقوم من غيرها من السّبل ، وذلك دين الله الّذى بعث به أنبياءه وهو الإسلام(٢) .

أنّ لهم أجراً كبيراً : بأنّ لهم من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات ثواباً عظيماً وجزاءً جزيلاً ، وذلك هو الجنّة الّتى أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله(٣) .

وأنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة : أنّ الثّانية معطوفة على الأولى(٤)

أعتدنا لهم : أعددنا لهم لقدومهم على ربّهم يوم القيامة(٥) .

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٦.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٧.
(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٧.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٧.

جاء لفظ المسجد الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام فى الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة ، وفيها النّصّ على إسراء الله تعالى بعبده وحبيبه محمّد ابن عبد الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . والمعروف أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ ناسخٌ لكلّ الدّيانات الأخرى بما فيها السّماويّة منها . وإنّ نسخ الإسلام لكلّ الدّيانات الأخرى تعمّقه الآية الكريمة السّابعة الّتى يتمّ فيها العدول عن استعمال اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى اليهوديّة ، إلى استعمال اللّفظ الّذى يدلّ على مكان العبادة فى الإسلام، وهو لفظ مسجد ، الّذى يجىء مرّة بصريح اللّفظ ومرّةً باستعمال اسم الضّمير العائد إليه . قال تعالى : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة ﴾ .

وإنّ الآيتين الكريمتين اللّتين نحن بصددهما تواصلان تأكيد هذا المعنى فتقرّران أنّ القرآن الكريم ، معجزةَ المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة ، هو الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم وأصوب من كلّ سبيل . وبشأن المستمسكين به المطبّقين لتعاليمه من المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات هو يبشّرهم بأن لهم يوم القيامة أجراً كبيراً فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. وبشأن الّذين لا يؤمنون بالقرآن الكريم ، وبالتّالى هم لا يطبّقون تعاليمه بل يعملون بعكسها ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ينذرهم هذا الكتاب العزيز بأنّ الله سبحانه وتعالى أعدّ لهم يوم القيامة عذاباً أليماً فى النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة ، بمعنى الأصنام الّتى يعبدها الضّالّون عن سواء السّبيل .

وثمة مسألةٌ مهمّةٌ نودّ التّنبيه عليها وهي أنّ القرآن الكريم أحد موضوعات السّورة الكريمة الّتى كثر الحديث عنها ، ولذلك تردّدت لفظة القرآن فى سورة الإسراء بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

الآية الكريمة تأخذ بسبب من قول الحق جلّ وعلا فى سورة يونس(١) : ﴿ ولو يعجّل الله للنّاس الشّرّ استعجالهم بالخير لقُضي إليهم أَجَلُهُمْ . فنذر الّذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ والمعنى أنّ الإنسان كما يندفع ساعة الرّضا إلى دعاء الله تعالى بالخير لنفسه وأهله وماله وكلّ من يحبّ ، يندفع ساعة الغضب إلى دعاء الله تعالى بالشّرّ على نفسه وأهله وماله وكلّ من يمكن له أن يشمله دعاؤه عليه وما يمكن . ولو كان من ربّ العزّة استجابةٌ لدعائه ساعة الغضب لكان فى ذلك هلاكه ولكنّ الله تعالى رحيمٌ حليم . وليس الدّعاء بالشّرّ إلاّ دليلاً أكيداً بين يدي تقرير الآية الكريمة أنّ الإنسان بطبعه كثير العجلة . والعَجَلة : طلب الشّىء وتحرّيه قبل أوانه ، وهو من مقتضى الشّهوة ، فلذلك صارت مذمومةً فى عامّة القرآن ، حتّى قيل : العجلة من الشّيطان(٢) جاء فى الحديث(٣) :« لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل اللّيل والنّهار آيتين دالّتين على عظيم قدرته جلّ وعلا ، من بين آياته عزّ وجلّ العظام الضّخام. ومن اختلاف هاتين الآيتين فى الكثير من الخصائص ، كاللّون ، والطّول ، والصّفة ، والطّبيعة ، والوظيفة ، والملابسات ، وما إلى ذلك ، تتجلّى الآيتان ، بسبب التّضادّ ، فى أبهى الصّفات ، وتختار الآية الكريمة أوضح صفات كلٍّ من الآيتين إنّ ربّ العزّة محا آية اللّيل وجعلها سوداء مظلمة وزيّنها بما زيّن به السّماء الدّنيا

(١) الآية ١١.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عجل» ٣٢٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦.

ليلاً ، من القمر والكواكب . وإنّ صفات هذه الآية هي المسعفة للمخلوقات ، وفى مقدّمتها الإنسان ، على اتّخاذ اللّيل راحةً وسكناً . ويلاحظ أنّ السّياق يقدّم آية اللّيل على آية النّهار إيماءً إلى أنّ الظّلام هو الأصل وأنّ النّور أو النّهار طارىءٌ على الظّلام أو اللّيل . وإنّ ربّ العزّة جعل آية النّهار مبصرة . ومع أنّ المخلوقات هي الّتى تبصر نهاراً ، لأن العمل والكسب يتمّان عادةً فى النّهار ، فإنّ السّياق يظهر لنا آية النّهار مبصرة العينين ، إيماءً إلى إيجابيّة النّهار ، واتّخاذ المخلوقات له ظرفاً للسّعى ، طلباً للرّزق والابتغاء من فضل الله تعالى .

إنّ السّياق لا يجىء فيه القول عن آية اللّيل على غرار القول عن آية النّهار : فجعلنا آية النّهار ممحوّة ، لأنّ فى التّعبير الّذى جئنا نحن به يظهر اللّيل أكثر إيجابيّةً من حقيقته الّتى أراده الله تعالى أن يكون عليها . إنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ فمحونا آية اللّيل ﴾ يظهر اللّيل الغاية فى السّلبيّة ، تماما كما أنّ القول عن النّهار : ﴿ وجعلنا آية النّهار مبصرة ﴾ يظهر النّهار الغاية فى الإيجابيّة . إنّ اللّيل بطبيعته غايةٌ فى السّلبيّة ، وإنّ النّهار بطبيعته غايةٌ فى الإيجابيّة ، تلك هي إرادة الحكيم الخبير ، وقد أومأ التّعبير عن كلٍّ من الآيتين إلى تلك الطبيعة .

ولمّا كان المطلوب من المسلم لله تعالى ربّ العالمين أن يسعى فى مناكب الأرض طلباً للرّزق ، وأن يعمر بإيجابيّته الأرض الّتى استعمره الله تعالى فيها ، ولمّا كان النّهار وقت العمل فى العادة بسبب إيجابيّته الّتى أومأت إليها الآية الكريمة، فإنّ السّياق حينما تحوّل إلى الحديث عن العملين المرتبطين بآيتي اللّيل والنّهار ، قدّم ما يعمّق هذه الإيجابيّة . إنّ العمل لمّا كان مرتبطاً بالنهار بأكثر منه باللّيل ، جاء مايتعلّق بالنّهار من القول متقدّماً . قال تعالى : ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربّكم ﴾ وإنّ علم عدد السّنين والحساب لمّا كانا مرتبطين باللّيل بأكثر منهما بالنّهار، فما أيسر إدراك منازل القمر مثلاً ، جاء مايتعلّق باللّيل من القول متأخراً: ﴿ ولتعلموا عدد السّنينَ والحساب ﴾ .

وبعد الحديث عن النّعمتين المتعلقتين بآيتي النّهار واللّيل جاء الحديث المتعلّق بما سواهما من نعم ، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وكلّ شيءٍ فصّلناه

تفصيلا ﴾ إنّ كلّ شيء بيّنه ربّ العزّة والجلال بياناً شافياً فى القرآن الكريم وبيّنه حبيبه المصطفى ﷺ فى السّنّة المطهّرة المبيّنة للقرآن الكريم . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وهكذا يستفيد الإنسان بكلّ آيات الله تعالى ، وفى مقدّمتها القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أحسن وأقوم .

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه : عن ابن عبّاس : عمله وما قُدِر عليه فهو ملازمه أينما كان فزائلٌ معه أينما زال[2] .

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا : حسبك اليوم نفسك عليك حاسباً يحسب عليك أعمالك فيحصيها عليك[3] ومحاسبا[4] .

نصّ ابن عبّاس رضي الله عنهما على أنّ لفظ الطّائر فى الآية الكريمة الأولى بمعنى العمل . ولمّا كانت لفظة الطّائر فى القرآن الكريم قد مرّت بما يسمىّ بتطوّر الدّلالة ، ولمّا كانت لفظة الطّائر هنا تمثّل آخر مراحل تطوّر الدّلالة ، وكانت لفظة الطّائر فى الآية الكريمة الحادية والثّلاثين بعد المائة من سورة الأعراف ، تمثّل مرحلةً وسطى من مراحل تطوّر دلالة اللّفظ ، ولمّا كنّا فى الجزء التّاسع من التّفسير البسيط للقرآن الكريم ، فى أثناء دراسة الآية الكريمة ، وفى غير التّفسير البسيط ، قد بيّنّا مراحل تطوّر الدّلالة للفظة الطّائر ، فإنّا نودّ أن نوجز هنا ماسبق أن قلنا فى هذه المسألة .

---

(١) سورة المائدة ٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤١.
(٤) الجلالين.

إنّ لفظة « طائر » الّتى تدّل على مايطير بجناحيه ، جاءت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنعام[1] : ﴿ وما من دابّة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أممٌ أمثالكم . ما فرّطنا فى الكتاب من شىءٍ ثمّ إلى ربّهم يُحشرون ﴾ .

وإنّ لفظة « طائر » الّتى يرتبط معناها بالمرحلة الوسطى فى مجال تطوّر الدّلالة ، والّتى أصبحت مقترنة بالتّطير بمعنى التّشاؤم أو التفاؤل ، تجىء فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هى : قول الحقّ جل وعلا فى سورة الأعراف[2] : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يّطيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا بشأن صالحٍ عليه السّلام وقومه فى سورة النّمل[3] : ﴿ قالوا اطيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تفتنون ﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا بشأن الرّسل الثّلاثة وأقوامهم فى سورة يس[4] : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

وفى هذه المرحلة الوسطى ارتبطت لفظة « طائر» بعمليّة التّطيّر ، وهي فى الأساس تعتمد على الطّير ، وتفيد التّفاؤل والتّشاؤم معاً ، ثمّ غلب على التّطيّر معنى التشاؤم . وقد انعكست على لفظ الطّائر كلّ المعانى الّتى يقوم بها المتطيّر الّذى يهيج الطّيور بنيّة التّفاؤل أو التشاؤم . ومن هنا أفاد لفظ الطّائر سلسلة المعانى المرتبطة بالشخص المتطيّر . إنّ الشّخص الّذى يهيج الطّائر فى نيّته التّفاؤل أو التّشاؤم ، وفى ضوء اتّجاه الطّائر يميناً أو شمالاً يتفاءل أو يتشاءم ، يُقدْم أو

---

(١) الآية ٣٨.
(٢) الآية ١٣١.
(٣) الآية ٤٧.
(٤) الآيتان ١٨و١٩.

يحجم . وحينما يعمل قد يكون حظّه النّجاح أو الفشل . وهكذا أفاد لفظ الطائر في هذه المرحلة الوسطى مجموعةً من المعانى كالتفاؤل أو التّشاؤم ، والعمل ، والحظّ أو البخت .

ومعنى آية سورة الأعراف الكريمة بإيجاز ، دليلاً على هذه المرحلة الوسطى : فإذا جاءت الحسنة وما أكثرها ، من مطرٍ ورزقٍ حسن وخيرٍ وفيرٍ وأمنٍ وجاهٍ وما إلى ذلك ، قال فرعون وآله : لنا هذه ونحن أهلٌ لها ونستحقّها . وإن تصبهم سيئةٌ ولا تخطئهم ، وما أقلّ السّيئات بالقياس إلى الحسنات ، يّطيّروا بموسى عليه السلام ومن معه ويتشاءموا بوجودهم معهم وبقائهم بين ظهرانَيْهم ، علماً بأنّ موسى عليه السّلام ومن معه موجودون بين ظهراني القوم حينما تجيئهم الحسنات . ولكنّ هذا هو منطق الطّغاة البغاة . ولمّا كان القوم قد تطيّرا بموسى ومن معه ، أي تشاءموا ، فإنّ الآية الكريمة يجيء فيها من باب المشاكلة ومراعاة النّظير والتّمشّى مع تطيّر القوم قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ والطائر هنا بمعنى الشّؤم . فالله سبحانه وتعالى هو الّذى كتب عليهم الشّقاء . وهذا المعنى يبيّنه قول الحقّ جلّ وعلا على ألسنة الرّسل الثّلاثة فى سورة يس[1] : ﴿ قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرِفون ﴾ .

وإذا كان التّطيّر على ألسنة الكافرين فى كلٍّ من سورة الأعراف والنّمل ويس بمعناه الجاهليّ على نحو ماتبيّن ، فإنّ مايجيء رداً عليهم من باب المشاكلة ومراعاة النّظير إن اتّفق شكلاً فكان معنى الطّائر الشّؤم فإنّه يختلف تماماً من جهة المعنى . إنّ المعنى هنا إسلاميٌّ خالص . إنّ ما حلّ بالقوم الكافرين من سوء بسبب موقفهم المناوىء للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد وأعمالهم السّيّئة .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة من سورة الإسراء الكريمة تبيّنّا أنّ هذا القول فيها : ﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ يمثل أرفع الأجواء الّتى ارتقت إليها

---

(١) الآية ١٩.

لفظة الطّائر ، والّتى ما كانت اللّفظة لتقترب منها لولا هذا الكتاب العزيز الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم ، والّذى تحدّى الله تعالى به الإنس والجنّ أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مِثْلِ أقصر سوره فعجزوا. إنّ المعنى : وكلّ إنسانٍ مؤمنٍ أو كافر، صالحٍ أو طالح ، ألزمناه يوم القيامة طائره فى عنقه ، بمعنى كتاب أعماله الّذى لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها . إنّ عمل الإنسان إن كان صالحاً فهو بمثابة الطّوق الّذى يحلّى جيد الحمامة المطوّقة خلْقة ، وإن كان طالحاً فهو بمثابة الغُلّ ، وهو ذلك النّوع من القيود ، الذّى يكون بطبعه فى العنق ويشدّ بالضّرورة اليدين إلى العنق شداً مريراً . وكأنّ هذا النوع من العمل السّيّىء الغريم الممسك بخناق غريمه .

وهذه الأعمال الصّالحة أو الطّالحة ، الحسنة أو السّيّئة ، المتعلّقة بعنق كلّ إنسان ، يشتمل عليها كلّها كتابٌ خاصٌّ بكلّ إنسان ، يلقاه يوم القيامة أمامه منشوراً ومبسوطاً بعد طيّ . وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ .

ويقال لهذا الإنسان ، كما جاء فى الآية الكريمة الأخرى : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ وذلك دليلٌ على أنّ كلّ إنسان يستطيع أن يفهم كلّ مافى كتاب أعماله بمجرّد إلقاء نظرةٍ عليه لأنّه فى اللّغة أو الهيئة الّتى يفهمها .

وتنبيهاً على العدل فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، يجىء القول : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ والمعنى حسبك نفسك يوم القيامة عليك حاسباً ومحصياً ومحاسباً . وليس ثمّة عدلٌ وراء تمكين الخصم من إصدار الحكم على نفسه بمقدار ذنبه وجرمه .

ويُفْهَم من كلّ ماسبق مسئوليّة كلّ إنسان الكاملة عن كلّ مايأتى ويدع ، فعلى كلّ إنسانٍ أن يأخذ حذره ولا يلومَنّ إلاّ نفسه حينما يقصّر فى جنب الله تعالى ، لا سمح الله .

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى : الوزر : الثِّقْل ، ويعبَّر بذلك عن الإثم ، كما يعبَّر عنه بالثِّقْل . والوزير : المتحمِّل ثقلَ أميره وشُغْلَه ﴿ ولا تزر وازرةٌ وِزْر أخرى ﴾ أي لا يُحمَلْ وزرُه من حيث يتعرَّى المحمول عنه(١) يعني تعالى ذكره : ولا تحمل حاملةٌ حمل أخرى غيرها من الآثام . ولا تزر نفسٌ وازرةٌ وزر نفسٍ أخري(٢) .

تعمّق الآية الكريمة مسئولية الإنسان . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من اهتدى بتعاليم القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم ، والّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ فإنّما يهتدى لنفسه ، لأنّ ثواب الهداية راجعٌ إليه فى الأولى والآخرة ، وذلك فى هيئة الحياة الطّيّبة بإذن الله تعالى فى الدّنيا والآخرة . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ من ضلّ عن سواء السّبيل فإنّما يضلّ على نفسه لأنّ عقاب الضّلال عائدٌ إليه فى الأولى والآخرة بإذن الله تعالى . ويوم القيامة لا تَحْمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفسٍ أخرى ، بل كلٌّ يحمل وزره وإثمه وثقْلَه . وقد قال عزّ من قائل(٣) : ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى . وإن تَدْعُ مثقَلَةٌ إلى حِمْلها لا يُحْمَلْ منه شيءٌ ولو كان ذا قُرْبى ﴾ ومن تمام عدل الله تعالى وفضله أنّه لا يعذّب أحداً حتّي يبعث رسولاً يبلّغ رسالة ربّه جلّ وعلا وحتّى تبلغ الرّسالة ذلك الضّالّ الآثم .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وزر» ٥٢١.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٤١.

(٣) سورة فاطر ١٨.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها " قال ابن عبّاس : أمرنا مترفيها بطاعة الله فعصوا(١) .

فحقّ عليها القول : فوجب عليها بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها وعيد الله الّذى أوعد من كفر به وخالف رسله من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرّسل والحجج(٢) .

فدمّرناها تدميرا : فخرّبناها عند ذلك تخريباً وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا (٣).

يصحّ النّظر إلى الآية الكريمة فى ضوء مثل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف(٤) . ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أَمَرَنَا بها . قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لاتعلمون . قل أمر ربّى بالقسط . وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وأدعوه مخلصين له الدّين . كما بدأكم تعودون ﴾ .

وبناءً على ذلك يصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة فى ضوء ماجاء عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما : وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها بطاعة الله

---

(١) انظر تفسير الطّبرى١٥/ ٤٢.
(٢) تفسير الطّبرى١٥/ ٤٣.
(٣) تفسير الطّبرى١٥.
(٤) الآية ٢٨.

تعالى ففسقوا فيها وشطّوا عن الطّريق المستقيم فحقّ عليها القول بالعذاب فأهلكنا أهلها إهلاكا ، ودمّرناها تدميرا .

ووراء ذلك يصحّ أن يكون للآية الكريمة معنيً آخر ، نظنّ ، والله أعلم ، أنّه المعنى الرّاجح .

ونمهّد لهذا المعنى بذكر ماسبق أن أومأنا إليه بشأن قول الحقّ جلّ وعلا عن كفّار مكّة المعاندين فى سورة يس[1] : ﴿ لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يُبْصِرون . وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يؤمنون ﴾ ومحور الاستشهاد يتعلّق بالآية الكريمة : ﴿ إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ والأغلال جمع غُلّ ، بضمّ الغين . وينفرد الغُلّ بكونه القيد الّذى يطوّق العنق ويشدّ اليدين إلى العنق شداً . وبناءً على ذلك يعود اسم الضّمير هي من القول : ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ إلى الأيدى الّتى يشترط وجودها مع وجود الغلّ ، ولا يعود اسم الضّمير إلى الأغلال رغم أنّها مذكورة . والقول : ﴿ مقمحون ﴾ جمع مُقْمَح وهو البعير الّذى يضطرّ لرفع رأسه عن الماء ، بسبب المرض أو شدّة برودة الماء ، ولإغماض عينيه . إنّ كفّار مكّة مستكبرون . والدّليل على ذلك تلك الحال الّتى هم عليها والمستعارة من البعير المقمح . إنّهم يرفعون رءوسهم كبرا ، ويشمخون بأنوفهم غطرسة ، ويغمضون عيونهم تيها . وإنّما فعل كفّار مكّة كلّ ذلك دليل العزّ فى اعتقادهم الخاطىء ، وإنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ الحال الّتى يبدو عليها كفّار مكّة هي أكبر دليلٍ على منتهى الذّلّ والهوان . إنّ حال كلّ واحد من الكافرين حينما يبدو فى هيئة البعير المقمح هو فى الحقيقة حال الأسير العانى الّذى يشدّ الغلّ يديه إلى عنقه شداً ، وبالتّالى تُرْغِم يداه المشدودتان إلى ذَقَنِه على رفع

---

(١) الآيات ٧ـ١٠.

الرّأس دليلاً على الذّلّ والهوان . وتأكيداً لشعور الذّلّ والهوان هو يغمض عينيه .

فى ضوء ماسبق يكون معنى الآيات الكريمات ، والله تعالى أعلم : لقد حقّ القول على أكثر كفّار مكّة بدخول جهنّم بسبب إعراضهم عن الرّسول العظيم والقرآن الكريم فهم لا يؤمنون حتّى يلقوا الله تعالى مشركين به جلّ وعلا فى العبادة سواه . والعجيب بشأن كفّار مكّة أنّهم سعداء بكفرهم فهم مستكبرون يرفعون رءوسهم ويغمضون عيونهم عُجباً وتيهاً بينما هم فى الحقيقة يمثّلون أحطّ دركات الذّلّ ، وكأنّ الواحد منهم ذلك الأسير العانى الّذى أرغمه الغلّ الّذى يشدّ يديه إلى العنق شداً على أن يرفع رأسه بفعل اليدين اللّتين لصقتا بالذّقَن وعلى أن يغمض عينيه تأكيداً لشعوره العميق بالذّل والهوان . وهذا المُقْمَح لا يستطيع أن ينظر إلاّ أمامه ، وبالتّالى لا يستطيع أن يرى إلاّ النّور الّذى أمامه حينما تكون حاسّة البصر عنده سليمة . وهذا النّور الّذى يكون فى الإمام إمّا أن يكون قادماً من الأمام أو آتياً من الخلف . وحينما يكون ثمّة نوران من هذا القبيل يطغى فى العادة النّور القادم من الأمام . فإذا ذهب النّور القادم من الأمام أتى النّور القادم من الخلف . لقد نبّه السّياق إلى كلّ هذه الدّقائق حينما جعل بين أيدى الكافرين سداً من أمامهم منع النّور القادم من الأمام ، وجعل من خلفهم سداً آخر منع النّور الآتي هذه المرّة من الخلف . وبعد أن عطّل القوم حاسّة البصر ، والمراد بذلك فى المعنويات نور البصيرة ، عطّلوا حاسّة السّمع ، والمراد بذلك فى المعنويات الأذن الواعية والقلب الشّهيد . إنّ القوم بسبب تعطيل حاسّة السّمع يستوى إنذار الرّسول ﷺ لهم وعدم الإنذار .

ممّا سبق يتبيّن على الحقيقة أنّ الكافرين هم الذّين جعلوا الأغلال فى أعناقهم فهم مقمحون ، وهم الّذين سدّوا كلّ منافذ الهداية ، وفى مقدّمة تلك المنافذ قلوب القوم فى صدورهم بسبب عمى البصائر ، وآذان القوم الّتى تقف عند مستوى الأنعام الّتى تسمع ولا تفهم ولا تعى .

وبعد هذه الجولة مع آيات سورة يس نعود الى الآية الكريمة الّتى نحن

بصددها من سورة الإسراء . قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرّناها تدميرا ﴾ .

إنّ ربّ العزّة والجلال قد أرسل حبيبه محمّداً ﷺ بدين الإسلام الّذى أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا ، وأنزل القرآن الكريم الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم ، ويصدّق الكتب السّماويّة السّابقة ويهيمن عليها . وقد بيّن القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطّهرة طريق الخير كي يُسْلَك ، وطريق الشّرّ كي يهجر ، ووضّحا أنّ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحييه الحياة الطّيّبة فى الأولى ، وكذلك فى الآخرة فى هيئة الجزاء الحسن فى الجنّة الّتى فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أمّا من كفر وأعرض عن ذكر الله تعالى فإنّ له معيشةً ضنكاً (١) وسوف يُحْشَرُ يوم القيامة أعمى إلى النّار وبئس القرار . وربّما سبق الحياةَ السّيّئةَ فى الآخرة الحياةُ السّيّئة فى الأولى لمن شاء الله تعالى أن يجمع لهم بين عذاب الحياتين بسبب إصرارهم على الكفر وتكذيب كلٍّ من الرّسول الكريم والقرآن العظيم . وبهذا يتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر بالقسط وبالعدل وبعمل الصّالحات ولا يأمر جلّ وعلا بالفحشاء وما كان عزّ وجلّ معذّباً حتّى يبعث رسولاً .

ولمّا كان علم الله تعالى ليس للزّمن علاقةٌ به مطلقاً ، إذ يستوى فى علم الله تعالى ما كان ويكون وسيكون ، وممّا سبق إليه علمه جلّ وعلا عمل أولئك الّذين يستحقّون الهلاك فى الدّنيا والجحيم فى الآخرة ، فقد جاء فى آية سورة الإسراء الكريمة التّعبير عن العلم المطلق للذّات العليّة بما سوف يفعله الفاسقون عن أمر ربّهم جلّ وعلا وبما سوف يكون جزاءً لهم فى الأولى من هلاك وفى الآخرة من نار ، جاء فى الآية الكريمة التّعبير عن كلّ ذلك بالأمر . قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرا ﴾ إنّ

---

(١) ضنكا : ضيّقة نكدة.

حكمة الله تعالى قد اقتضت أنّ يهلك القرية الّتى يفسق أهلها فيها . وأكثر الفاسقين فى كلّ قريةٍ هم المترفون الّذين يستطيعون بمالهم وجاههم ومناصبهم إتيان كلّ منكرٍ دون خوفٍ من الله تعالى ولا حياءٍ من عباد الله تعالى . فإذا كثر فسق أهل القرية ولم يردعهم دينٌ ولا حياءٌ ولا سلطة حق عليها قول الله تعالى بالعذاب الأليم الشّديد الّذى يأخذ أهلها ، والدّمار الأكيد الّذى يصيبها بإرادة الله تعالى ولا يخطئها . وما أكثر صور الدّمار والهلاك من زلازل وبراكين وأعاصير وأوبئة وكوارث وحروب وما إلى ذلك : ﴿ لا يُسْأل عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْألون ﴾[1] .

وهكذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تعمّق معنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأعراف [2]: ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لاتعلمون . قل أمر ربّى بالقسط . وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وأدعوه مخلصين له الدّين . كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة . إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون ﴾ .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وكم أهلكنا من القرون : القرون جمع القرن . والقرن : القوم المقترنون فى زمنٍ واحد[3] والقرون : الأمم[4] .

وكفى بربّك بذنوب عباده خبيراً بصيرا : وحسبك يامحمّد بالله خابراً بذنوب خلقه عالماً [5].

بقصد تسلية المصطفى ﷺ وتهديد كفّار مكّة تومىء الآية الكريمة إلى كثرة

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣.
(٢) الآيات ٢٨ـ٣٠.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قرن» ٤٠١.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير الطبرى ١٥/ ٤٤.

الأمم الّتى أهلكها الله تعالى من بعد نوحٍ عليه السّلام . إنّها تقول : ما أكثر الأمم الكافرة الّتى أهلكناها بعـد نوحٍ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى فلا يعجـزنا كفّار مكّة ولا يفوتوننا . وحسبك يامحمّد بربّك الّذى ربّاك بنعمه ونشّأك بآلائه ، خبيراً بباطن ذنوب عـباده وظاهرها ، عليما وبصـيراً بظاهر ذنوب عباده وباطنـها ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ولا يعجزه .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يصلاها : يدخلها[١] .

مذموماً : عن ابن عبّاس : ملوما[٢] .

مدحوراً : مطروداً عن الرّحمة[٣] .

وما كان عطاء ربك؛ محظوراً : ممنوعا[٤] قال ابن عبّاس : فيرزق من أراد الدّنيا ويرزق من أراد الآخرة[٥] .

انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض : انظر يامحمّد بعين قلبك إلى هذين الفريقين[٦] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ من كان يريد بأعماله الصّالحة بمقياس الإسلام الحياة الدّنيا العاجلة والثّواب الفوريّ فيها ، وبذلك فُقد الشّرط الآخر الّذى ينبغى توافره وهو إخلاص النّيّة لله تعالى إضافةً إلى الشّرط الأوّل وهو صلاح العمل بمقياس الإسلام كي يتفضّل الله تعالى بقبول ذلك العمل ، تقرّر الآية الكريمة أنّ

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣ والجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٥.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٥.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٥.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٦.

من كانت تلك هى إرادته عجّل الله تعالى له فى الدّنيا ذلك الثّواب . وهذا الثّواب العاجل فى الدّنيا لا يتحقّق بإرادة الله تعالى إلاّ لمن شاء الله تعالى أن يحقّق له الثّواب العاجل فى الدّنيا من مالٍ زائل ومجدٍ زائف وما إلى ذلك من متاع هذه الدّنيا الغَرور . وهذا الّذى أراد بعمله الصّالح الدّنيا العاجلة ، سواءٌ نال فى الدّنيا ما يريد أو لم ينل سوف يجعل الله تعالى له يوم القيامة نار جهنّم يدخلها ملوماً مذموماً لإيثاره العاجلة على الآجلة ، مدحوراً مطروداً من رحمة الله تعالى يوم القيامة فى جهنّم وبئس القرار . وواضحٌ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الكافر .

وتقرر الآية الكريمة الثّانية أنّ من أراد الحياة الآخرة الآجلة الباقية ، وسعى لها سعيها ، واجتهد في عمل الصالحات الّتى أراد بها وجه الله تعالى ، وهو مؤمنٌ بالله تعالى ربّاً ، وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً ، وبالاسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، فإنّ أولئك كان سعيهم مشكوراً دائماً وأبداً ، وسينالون به بفضل الله تعالى الحياة الطّيّبة فى الآخرة ، فى جنّات النّعيم ، إضافةً إلى الحياة الطّيّبة فى الأولى ، بسبب برد اليقين ودفء التّقوى . وربّما أضيف إلى هذه الحياة الطّيّبة المعنويّة وهي الأهمّ ، الحياة الطّيّبة المادّيّة فلم ينسوا نصيبهم من الدّنيا ، وأحسنوا كما أحسن الله تعالى إليهم ، وأنفقوا ممّا جعلهم الله تعالى مستخلفين فيه .

وتقرّر الآية الكريمة الثّالثة أنّ كلاًّ من الفريقين ، من أراد العاجلة ومن أراد الآجلة يُمِدّه الله تعالى من الوجهةالمادّيّة ، ويخصّه بعطائه من خزائن فضله الّتى لا تنفد . وماكان عطاء ربّك أيّها الإسول الكريم ، والنّبيّ العظيم محظوراً وممنوعاً عن مؤمنٍ ولا كافر ، لأنّ هذه الحياة الدّنيا لا تستحقّ عند الله تعالى جناح بعوضةٍ وإلاّ لما سقى الكافر فيها شربة ماء .

وبقصد أن يستفيد كلّ إنسان من التّفاضل بين النّاس فى المادّيات فى هذه الحياة الدّنيا ، وذلك فى معرفة التّفاضل الحقيقيّ والأكبر بين النّاس يوم القيامة ، تأمر الآية الكريمة الأخيرة المصطفى ﷺ وكلَّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة وراء ذلك ، بأن ينظر بعين العقل ونور البصيرة وبالعين المجردّة كذلك ، كيف فضّل

الله تعالى بعض النّاس على بعضٍ فى هـذه الحياة الدّنيا فى جـميع المجالات . إنّ الحياة الآخرة الآجلة الخالدة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً فليتنافس المنافسون من أجل الحصول على رفيع الدّرجة وكبير الفضل .

(٤)

« آيـــات الحكمـــة »

الآيـــــــات (٢٢ ـ ٣٩)

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

الخِذلان : ترك مَنْ يُظنّ به أن يَنْصُر نُصْرَتَه[1] .

الخطاب يتّجه إلى كلّ إنسان ، وليس مقصوراً على شخصٍ واحد بعينه أو الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين وحدها. والآية الكريمة تنهى جنس الإنسان أن يجعل مع الله تعالى المعبود بحقٍّ وحده لا شريك له ، أن يجعل إلها آخر، لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وتبيّن الآية الكريمة العاقبة الوخيمة لعبادة الآلهة المزعومة الّتى يبتغى العابد عندها العزّ فيجد الذّلّ. إنّه بإشراكه مع الله تعالى العزيز الغالب، الآلهة الذّليلة العاجزة، نال الذّلّ والذّمّ والخِذلان. أمّا الذّلّ فتدلّ عليه جملة : ﴿ فتقعد ﴾ الّتى تفيد معنيين اثنين هيئة القعود واتّجاه القاعد من أعلى، أعنى الوقوف، إلى أسفل أعنى القعود. علماً بأنّ الجملة الأخرى صنوها : ﴿ تجلس ﴾ تفيد هي الأخرى معنيين اثنين، هيئة الجلوس واتّجاه الجالس من أسفل، أعنى الاضطجاع مثلاً، إلى أعلى، أعنى الجلوس. ولا فرق بين هيئة القاعد وهيئة الجالس إلاّ فى الاتّجاه. وهكذا يتبيّن أنّ جملة : ﴿ فتقعد ﴾ إذا كانت تدلّ على الاتّجاه من أعلى إلى أسفل فى المحسوسات، فإنّها تدلّ على الانحطاط إلى درك الذّلّ والهوان فى المعنويّات. وأمّا الذّمّ الّذى ناله المشرك فإنّه الثّمرة النّكدة لكلّ من آثر فى الأولى الذّلّ والهوان على العزّ والكرامة. وأمّا الخِذلان الّذى ناله المشرك فإنّه الخذلان من الله تعالى والتّخلّى عنه فى الآخرة. وهكذا يجتمع على المشرك خِذلان الله تعالى له مقتاً، وخذلان الآلهة المزعومة عجزاً، ثمرةً نكدةً للشّرك.

وهذه الآية الكريمة أولى آيات الحكمة فى سورة الإسراء. وإنّ أوامر آيات

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خذل» ١٤٤.

الحكمة ونواهيها غير قابلة للنّسخ فى سائر الشّرائع. ومن البيّن أنّها تبدأ بأهم مسألة ألا وهي توحيد الله تعالى. وسوف يتبيّن أنّ آيات الحكمة تنتهى أيضا بالحديث عن هذه المسألة الأهمّ.

وابن تيمية فى كتاب الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح[1] أشار إلى آيات الحكمة فى القرآن كالوصايا المذكورة فى آخر الأنعام[2] وأوّل سورة الأعراف[3] وسورة سبحان[4] ونحوها من السّور المكّية.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وقضى ربّك : عن ابن عبّاس : قضى : أمر[5].

ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه : بألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه[6].

وبالوالدين إحساناً : وأمر بالوالدين إحسانا[7] وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا[8].

إمّا : إن من إمّا حرف شرط جازم[9] زيدت عليها ما توكيداً لها[10]

---

(١) ١/ ٣.
(٢) الآيات ١٥١ـ١٥٣.
(٣) الآيات ٢٩ـ٣٣.
(٤) من أسماء سورة الإسراء سبحان وبنو إسرائيل.
(٥) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٦ والبحر المحيط ٦/ ٢٥.
(٦) الجلالين.
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤ وأنظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٤٧ والكشّاف ٢/ ٢٨٨.
(٨) انظر البحر المحيط ٦/ ٢٥ والجلالين.
(٩) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٨.
(١٠) الكشّاف ٢/ ٢٢٨ وانظر البحر المحيط ٦/ ٢٦.

أفّ : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر. والفاعل أنا[1] ولم يأت اسم فعل بمعنى المضارع إلاّ قليلاً نحو أفّ وأوّه بمعنى أتوجّع[2] وأصل الأُفّ كلٌّ مستقذَر من وَسَخٍ وقُلامة ظُفُر وما يجرى مجراهما[3].

ولا تنهرهما : ولا تزجرهما[4] والنَّهْر والانتهار : الزّجر بمغالظة. يقال : نهره وانتهره[5].

تخاطب الآية الكريمة كلّ إنسانٍ وتقول له : إنّ ربّك جلّ وعلا الّذى ربّاك بنعمه وآلائه أمركم ألا تعبدوا إلاّ إيّاه عزّ وجلّ، وأمركم بالوالدين إحساناً.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة هذه تكمل ما بدأته الآية الكريمة الأولى السّابقة من حديثٍ بشأن قضيّة التّوحيد. فإذا أضيف إلى ذلك أنّ آخر آيات الحكمة تتحدّث للمرّة الثّالثة فى هذه القضيّة أدركنا الدّلالة العميقة لتكرار الحديث على خطورة القضيّة . وليس ثمّة الحبّة الأخرى فى عقد آيات الحكمة الّتى تكرّر الحديث عنها بهذا المقدار. ومن البيّن كذلك أنّ الآية الكريمة إحدى الآيات الكريمات العديدات الّتى تمّ فيها الجمع بين قضيّة التّوحيد وبّر الوالدين. ويتبيّن من الجمع بين القضيّتين أهمّيّة برّ الوالدين فى الإسلام. وما أكثر الأحاديث النّبويّة الشّريفة فى برّ الوالدين، وبخاصّة الوالدة.

وتواصل الآية الكريمة حديثها فى برّ الوالدين فى أسلوب القرآن الكريم المعجز. ومع أنّ أصل الكلام ونحن بصدد جملةٍ فعليّة : إمّا يبلغّن أحد والديك أو كلاهما الكبر عندك، إذ جاء الفاعل بعد الفعل والمفعول بعد الفاعل ثمّ جاء ظرف المكان متأخّراً لأنّه فضلةٌ، وهكذا جاء كلٌّ فى موضعه، فإنّ السّياق فى الآية

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «أفّ» ٩.
(٤) الجلالين.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نهر» ٥٠٧.

الكريمة انقلب رأساً على عقب لأسباب بلاغيّة بل إعجازيّة. لقد جاء ظرف المكان بعد الفعل مباشرة لحمل القارىء أو السّامع على التّفكر فى هذا المضطرّ لأن يكون عنده وفى كنفه وتحت رعايته. وحينما يكون الحديث من ذى قبل عن التّوحيد وعن الوالدين فمن الطّبيعيّ أن ينصرف الذّهن إلى الوالدين، مع أنّه ليس ثمّة الدّليل الأكيد على هذا الانصراف. ويتأكد الانصراف إلى الوالدين حينما يأتى المفعول به متقدماً على الفاعل : ﴿ إمّا يبلغنّ عندك الكبر ﴾ إنّ ظرف المكان : ﴿عندك﴾ يبدو معه الحاجب الأوّل للمعنى. وإنّ المفعول به : ﴿ الكبر ﴾ يبدو معه الحاجب الآخر للمعنى بعد أن ضُنَّ به أوّلا. حتّى إذا جاء الفاعل وماعطف عليه : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ بدا وجه المعنى كاملاً، وكأنّه الشمس الّتى خرجت توّا من وراء السّحب إن كان الباقى على قيد الحياة هي الوالدة، أو كأنّه القمر الّذى خرج تواً من وراء الحجب إن كان الباقى على قيد الحياة هو الوالد. وإلى هذا المعنى أشار القول : ﴿ أحدهما ﴾ وإلى معنىً آخر أشار القول : ﴿ أو كلاهما ﴾ إنّ المعنى الكاملَ وجهُهُ بدا وكأنّه وجه الشّمس والقمر معاً دليلاً على الوالدة والوالد معاً. إنّ الوجه الكامل لكلٍّ من الشّمس والقمر لا يجتمعان فى الواقع مطلقا، ومن هنا قيل للقمر ليلة النّصف من الشّهر إنّه البدر، لأنّه يبادر فى طلوعه وكأنّه يريد أن يسبق الشّمس فى غروبها وراء الأفق. وإنّ الشّمس والقمر يصحّ أن يجتمعا فى المنام على نحو مايفهم من قول الحقّ جلّ وعلا على لسان يوسف عليه السّلام فى سورة يوسف[1] : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنىّ رأيت أحد عشر كوكباً والشّمسَ والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ وإنّ الشّمس والقمر يصحّ أن يجتمعا دليلاً على الوالدين معاً على نحو ماتبيّن من الطّريقة الإعجازيّة الّتى تبدّت معها أجزاء وجه المعنى حتّى بدا كاملاً فى هيئة وجه كلٍّ من الشّمس والقمر، والّتى توّجت بالقول : ﴿ أو كلاهما ﴾.

---

(١) الآية ٤.

ويتجلّى الإعجاز كذلك فى تقديم القول : ﴿ أحدهما ﴾ وتأخير القول : ﴿ أو كلاهما ﴾ إنّ تقديم القول : ﴿ أحدهما ﴾ ينبّه إلى الواقع الغالب من سبق أحد الوالدين الآخر إلى الموت من ناحية، وسبق الوالد إلى الموت الوالدة فى العادة من ناحية أخرى. إنّ فى بقاء أحد الوالدين حيّاً حثّاً لكلّ ابن وبنت على أن يكون شديد البِّر به. وإنّ فى بقاء الوالدة حيّةً حثّاً أكبر على البّر الأشدّ. وكما أفاد القول : ﴿ أحدهما ﴾ الاحتمال الغالب ولهذا تقدّم، أفاد القول : ﴿ أو كلاهما ﴾ الاحتمال الآخر، وهو بقاء الوالدين حيّين معاً، حينما يكون الأبناء والبنات رجالاً ونساءً، ولهذا تأخّر. وقد جاء فى المَثَل : من سَرَّه بنوه ساءته نفسه[1] .

إنّ المطلوب من كلّ ابن وبنت ألاّ يقول لأيّ من الوالدين أقلّ الألفاظ دلالة على التّضجّر مثل : ﴿ أفّ ﴾ مهما يصدر منهما من قول أو فعل يسوء الأبناء، وألاّ ينهرهما ويزجرهما، وهذا من باب الأحْرى والأوْلى. إنّ المطلوب أن يقول لهما قولاً كريماً مؤدّباً حسناً طيّباً ليّنا، دليل الحبّ العميق لهما، والاحتفاء الكبير بهما .

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٣٠٠ المثل رقم ٤٠١٨.

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

واخفض لهما : الخفض ضدُّ الرّفع. والخفض الدّعةُ والسّير اللّيّن ﴿ واخفض لهما جناح الذّلّ ﴾ حثٌّ على تليين الجانب والانقياد[1] .

جناح : الجَناح جَناح الطّائر. يقال : جنح الطّائر أي كسر جناحه. قال تعالى[2] : ﴿ ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ وسمِّي جانبا الشّيء جناحيه فقيل جناحا السّفينة وجناحا العسكر وجناحا الوادى وجناحا الإنسان لجانبيه. وقوله عزّ وجل : ﴿واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة ﴾ فاستعارة . وذلك أنّه لمّا كان الذّلُّ ضَرْبين :ضَرْبٌ يضع الإنسان، وضربٌ يرفعه، وقُصِدَ فى هذا المكان إلى مايرفعه لا إلى مايضعه، استعار لفظ الجناح، فكأنّه قيل : استعمل الذّلّ الذى يرفعك عند الله تعالى من أجل اكتسابك الرّحمة أو من أجل رحمتك لهما[3] .

الذّلّ : الذُّلُّ ماكان عن قهر. يقال : ذلّ يذِل ذُلاً. وقوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة ﴾ أي كن كالمقهور لهما[4] .

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة ترشد الأبناء إلى القول الحسن فى الحديث مع والديهم فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ترشد الى الفعل الحسن.

إنّ الآية الكريمة تستعير من الطّائر حينما يهمّ بالهبوط جناحه المنكسر دليلاً على جناح الإنسان ، بمعنى يده وما جاورها، وعلى جانبه الّذى يخفضه إلى أقلِّ مستوى فى أثناء معاملته والديه. إنّ هذه الهيئة إن كان فى ظاهرها الذّلّ فإنّ فى باطنها العزّ الّذى ليس وراءه عز، لأنّ انخفاض جناح هذا الانسان إنّما هو بباعث الرّحمة لوالديه ، شديدي الحاجة لرحمة ولدهما فى كبرهما، وذلك فى مقابل رحمة الوالدين الأكبر لولدهما الأشدّ حاجةً لرحمتهما، بسبب صغر سنّه، وعدم علمه شيئاً حينما خرج من بطن أمّه. والآية الكريمة تتّخذ الأمر للأولاد بأن

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خفض» ١٥٢.
(٢) سورة الأنعام ٣٨.
(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جنح» ١٠٠.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ذل» ١٨٠.

يرحموا والديهمْ مطيّةً للتنبيه إلى رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ وحيّ، فتأمر الإبن بأن يسأل الله تعالى الرّحمة لوالديه كما ربّياه صغيراً.

ولا يخفى الجناس غير التّامّ الّذى اقتضاه المعنى بين القول : ﴿ربّ﴾ والقول : ﴿ ربّيانى ﴾ قال عزّ من قائل : ﴿ وقل ربّ ارحمهما كما ربّيانى صغيرا ﴾ .

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

فإنّه كان للأوّابين غفورا : الأوّاب كالتوّاب وهو الرّاجع إلى الله تعالى بترك المعاصى وفعل الطّاعات[1] .

يخاطب ربّ العزّة والجلال عباده الذّين أمرهم بتوحيده وببرّ الوالدين فيقول لهم : ربّكم أيّها النّاس أعلم بما تخفونه فى نفوسكم مِنْ إخلاصٍ لله تعالى فى العبادة أو عدم إخلاص ومن حِرْصٍ على برّ الوالدين أو تفريطٍ فى ذلك. إنّكم أيّها النّاس إن تكونوا أخيراً صالحين وعاملين بما أمركم به دين الإسلام فإنّ الله سبحانه وتعالى كان للأوّابين الرّاجعين إلى الله تعالى بعد تفريطٍ فى شيءٍ من حقّ الله تعالى أو حق الوالدين غفوراً ذلك التّفريط لعباده الذّين عادوا صالحين طائعين لله تعالى.

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

ولا تبذّر تبذيرا. التّبذير التّفريق. وأصله إلقاء البَذْر وطرحه، فاستعير لكلّ مضيّعٍ لماله. فتبذير البّذْر تضييعٌ فى الظاهر لمن لم يعرف مآل مايلقيه[2] .

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «أوب» ٣٠.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «بذر» ٤٠.

بعد الحديث عن قضيّة التّوحيد ، وهي حقّ الله تعالى بأن يعبدوه جلّ وعلا وألاّ يشركوا به شيئاً، تمّ التحول إلى العباد. وابتدأ الحديث بأولاهم حقّاً وهما الوالدان. ثمّ كان التّحوّل هنا إلى الّذين يلونهم على التّوالى قرباً. إنّ الآية الكريمة الأولى تأمر المسلم لله ربّ العالمين بأن يُعْطِيَ ذا القرابة من جهة الأبوين حقّه من البرّ والصّلة، وهو أشدّ قرباً من المسكين الذّى أسكنه الفقر، لأنّ القريب إن كان غنيّاً شملته الصّلة، وإن كان فقيراً شملته الصّلة والبرّ، والمسكين بهذا المعنى أشدّ قرباً من ابن السّبيل وأكثر وجوداً. إنّ ابن السّبيل هو المسافر المنقطع، فينبغى إعطاؤه مايوصله إلى بلده. ما أقلّ عدد أبناء السّبيل بالقياس إلى المساكين، وما أشدّ بعدهم نسباً فى العادة.

ولمّا كان لكلّ خصلةٍ حسنةٍ حدودٌ وإلا كان التّورط فى آفة تلك الخصلة. ولمّا كان آفة الإنفاق التّبذير فالفقر، فإنّ السّياق فى الوقت الّذى أمر بالإنفاق على فئات تأخذ دوماً فى الابتعاد نَسَباً عن المخاطب، بادر إلى وضع الحدّ الذّى يمنع بإذن الله تعالى عن التّورط فى آفة الكرم وهي الفقر بسبب التبذير. إنّ الآية الكريمة الأولى يجيء فيها القول : ﴿ولا تبذّر تبذيرا ﴾ والمعنى : ولا تبذّر المال وتُلْقِ به كيفما اتّفق كما تلْقَى البذور فى كلّ اتّجاه. وإذا كان الّذى يُلْقى البذور ينوى الحصول على الزّروع والثّمار، وإذا كان الّذى ينفق فى وجوه البّر يريد الثّواب الجزيل من الله تعالى فإنّ فى كلٍّ من العملين خيراً فى العاقبة. وبشأن الإنفاق فى الخيرات يرشد الإسلام إلى الطّريق الوسط بين البخل والتّبذير. جاء فى صفات عباد الرّحمن قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الفرقان[1] : ﴿ والذّين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وهذا المعنى سوف تقرّره إحدى آيات الحكمة فى هذه السّورة الكريمة. وقد يقول قائل : إنّ أبابكر رضي الله تعالى عنه أنفق كلّ ماله فى ساعة العسرة فى الاستعداد لغزوة تبوك. والجواب على ذلك أنّ أبابكرٍ رضي الله تعالى عنه وهو صدّيق هذه الأمّة، كانت قوافله التّجاريّة آنذاك تذرع

---

(١) الآيـــة ٦٧.

أرض الله تعالي الواسعة ذهاباً وإياباً.

وحينما يُنْفَق أقلّ المال فى سبيل الشيطان والشّرّ فذلك هو عين التّبذير الّذى تنهى عنه الآية الكريمة الأولى، والّذى تصوّر الآية الكريمة الأخرى صاحبه فى أبشع صورة.

إنّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ المبذرّين كانوا دائماً وأبداً إخوان الشّياطين الّذين استقرّ فى النّفوس أنّهم الغاية فى القبح والشّناعة خَلْقاً وخُلُقا. وكما كان المبذّر أخاً للشيطان فلا يعصى له أمراً، كذلك كان الشّيطان دائماً هو الشّديد الكفر لمولاه جلّ وعلا ولا يأمر الكفور إلاّ بالكفر. وممّا يأمر به اللّعين التّبذير.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

وإمّا تعرضنّ عنهم : وإن تعرض يامحمّد عن هؤلاء الّذين أمرتك أن تؤتيهم حقوقهم إذا وجدت إليها السّبيل بوجهك عند مسألتهم إيّاك مالاتجد إليه سبيلاً حياءً منهم ورحمةً لهم(١).

ابتغاء رحمةٍ من ربّك ترجوها : عن عكرمة : انتظار رزقٍ من الله يأتيك(٢).

فقل لهم قولاً ميسوراً : قال الحسن : قولاً ليّناً سهلاً (٣).

ترشد الآية الكريمة المسلم لله ربّ العالمين إلى مايقوله للسّائلين حينما يكون هو نفسه فى انتظار الرّزق من الله تعالى وبالتّالى هو يُعْرِض عن هؤلاء بوجهه حياءً منهم ورحمةً لهم وحرصاً على ماء وجوههم بأن يكون موفوراً. إنّ على المسئول أن يقول للسّائلين قولاً ليّناً سهلاً معروفاً وأن يعدهم وعداً حسناً جميلاً بأنّه سوف يعطيهم حقّهم وحظّهم من الرّزق الّذى يرجوه من الله تعالى والخير الّذى لايزال ينتظره.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ٥٤.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ٥٥.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ٥٥.

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

الغُلّ، بضّم الغين : حديدة تجمع يد الأسير إلى عنقه. ويقال لها جامعة أيضا(١) .

فتقعد ملوماً محسوراً، ملوماً : يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك. وتلومك نفسك على الإسراع فى مالك وذهابه. محسوراً : معييّا قد انقطع بك لا شيء عندك تنفقه. وأصله من قولهم للدّابّة الّتى قد سير عليها حتّى انقطع سيرها وكلّت ورزحت من السّير بأنّه حسير. يقال منه : حَسَرت الدّابّة فأنا أَحْسِرُها وأَحْسُرها حسراً، وذلك إذا أنضيته بالسّير(٢) وناقةٌ حسير : انحسر عنها اللّحم والقوّة(٣) يقول ابن كثير(٤) : « ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ وهذا من باب اللّفّ والنّشر. أى فتقعد إن بَخُلت ملوماً يلومك النّاس ويذمّونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبى سُلْمى فى المعلّقة :

ومن كان ذا مالٍ فيبخل بماله##على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير، وهو الدّابّة الّتى عَجِزت عن المسير فوقفت ضعفاً وعجزاً فإنّها تُسَمَّى الحسير، وهو مأخوذٌ من الكلال، كما قال(٥) : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور. ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فَسَّرَ هذه الآية ، بأنّ المراد هنا البخل والسّرف : ابن عبّاس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم ».

---

(١) لسان العرب : «غلل».
(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٥٦.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حسرة» ١١٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧.
(٥) سورة الملك ٣و٤.

هذه الآية الكرية من سورة الإسراء هي الآيَة الكريمة الوحيدة فى القرآن الكريم كلّه الّتى تذكر كلاً من اليد والعنق معاً حينما تشير إلى الغُلّ، وهو القيد الّذى ينفرد بكونه يجمع اليدين ويشدّهما إلى العنق شداً.

والآية الكريمة ـ كما تبيّن ـ تنهى عن البخل وعن التّبذير. ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تصل إلى النّهي عن البخل والتّبذير بتصويرها الرّائع وأسلوبها المعجز. إنّها كي تنهى عن البخل، هى تظهر صاحبه فى صورة قبيحة. إنّ البخيل الّذى تتّجه يده بالخير إلى ذاته وحدها تصوّره الآية الكريمة بأنّه ذلك الأسير العانى الّذى جمع الغلّ بين يديه وعنقه وشدّ اليدين للعنق شداً قوياً حتّى ظهر ذلك الّذى تلك صفته فى هيئة البعير المُقْمَح الّذى استعارته الآية الكريمة الثّامنة من سورة يس لكفّار مكّة الذليلين على الحقيقة. قال تعالى[1] : ﴿ إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون ﴾ والبعير المقمح هو البعير الذّى يضطرّ لرفع رأسه عن الماء بسبب المرض أو البرد.

وكما نهت الآية الكريمة عن البخل نهت عن التّبذير. لقد صوّرت الآية الكريمة المبذّر بأنّه ذلك الشّخص الّذى تمتدّ يده حتّى رءوس الأنامل فى خطٍّ مستقيم. والنّتيجة أنّ كفّه لا يستقرّ فيها شىء. إنّ البخل والتّبذير منهيٌّ عنهما. وإنّ الاعتدال فى الإنفاق مأمورٌ به.

وبعد اللّفّ، وهو وصف الآية الكريمة هيئة كلٍّ من البخيل والمبذّر، جاء النّشر، وهو ذكر مايترتّب على كلٍّ من البخل والتبذّير، وهو اللّوم والكلال. ويلاحظ أنّ النّشر بمعنييه جاء فى التّرتيب وفق اللّف بمعنييه.

إنّ الّذى يترتّب على البخل اللّوم. لوم الآخرين للبخيل.

وإنّ الّذى يترتّب على التّبذير الكلال. وهو عجز الإنسان المبذّر نفسه عن الحصول على أدنى الأشياء لأنّه ضيّع كلّ ماله.

وحينما يكون اللّوم من خارج النّفس والكلال من النّفس يكون فى ذلك قسمةٌ عادلةٌ حقّا.

---

(١) سورة يس ٨

وحينما تجيء في الآية الكريمة جملة : ﴿ فتقعد ﴾ الّتي تفيد الاتّجاه من الأعلى إلى الأدنى، فإنّها تدلّ على كامل المسئوليّة لكلٍّ من البخيل والمبذّر. إنّ اللّوم يستحقّه البخيل. وإنّ الحسرة يستحقّها المبذّر.

ومع أنّ كلاً من البخل والتّبذير وماترتّب على كلٍّ منهما، كلّ ذلك قبيح، فالّذي يبدو، والله تعالى أعلم، أنّ قبح المبذّر الحسير أكبر من قبح البخيل الملوم. خاصّةً إذا كان البخيل غير مفرّطٍ في جنب الله تعالى وفي حقّه عزّ وجلّ عليه.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

ويَقْدر : ويَقْتُرِ على من يشاء منهم فيضيّق عليه[1] يقال : قَدَرت عليه الشّيءَ ضيّقته . كأنّما جعلته بِقَدْرٍ، بخلاف ماوُصف بغير حساب[2] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ في المقام الأوّل وتقول : إنّ ربّك يامحمّد يوسّع الرّزق لمن يشاء من عباده جلّ وعلا، ويضيّق الرّزق على من يشاء لحكمة يعلمها جلّ وعلا. إنّه عزّ وجلّ كان دائماً وأبداً بعباده خبيراً ببواطنهم وظواهرهم، بصيراً بظواهرهم وبواطنهم، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

ومن البيّن علاقةُ الآية الكريمة الوثيقةُ بسابقتها. وحينما نقارن بين ترتيب المعنيين الأوّلين في الآيتين الكريمتين يتبيّن أنّ المعنيين في الآية الكريمة الثّانية يسيران عكس المعنيين في الآية الكريمة الأولى. إنّ العبد في الآية الكريمة الأولى يغلّ يده إلى عنقه، وإنّ الرّبّ عزّ وجلّ في الآية الكريمة الثّانية يبسط الرزق. وانّ العبد في الآية الكريمة الأولى يبذّر تبذيراً وإنّ الرب عز وجل في الآية الكريمة الثانية يضيّق الرزق على من يشاء من عباده : ﴿ لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ﴾[3] جاء في سورة الشّورى[4] قول الحقّ جلّ وعلا ﴿ ولو بسط الله الرّزق لعباده لبغوا في

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٧.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قدر» ٣٩٦.
(٣) سورة الأنبياء ٢٣
(٤) الآيـــة ٢٧.